

شعر غزوات النبي ﷺ

« دراسة تحليلية »

إعداد

د . محمد بن هادي المبارك

الأستاذ المشارك بقسم الأدب والبلاغة

بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمّا بعد: فإنّ الشّعْر في ظلال الإسلام قد أدّى دوراً لا يُنكر في مسيرة الدّعوة الإسلاميّة حين واكب الغزوات والفتوحات، وناصح الشّعراء عن حياض الدّعوة بكلّ ما أوتوا من فصاحة وبيان، وبما استقرّ في نفوسهم من أضواء اليقين، وإشراقات الإيمان. وكانت مواقف المصطفى ﷺ من شعراء الإسلام قد دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم، والوقوف في وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانية التي تزلزل الجبال وتَهزُّ الرّواسي. ولقد كانت غزوات النبي ﷺ ميداناً خصباً سار في ركابه كثير من الشّعراء، وأبانوا عن مناصرتهم لدين الله تعالى، والتّصدّي للمشرّكين الذين ما فتئوا يتعرّضون للمسلمين. حيث كان للشّعْر - آنذاك - دوره في مختلف المواقع والغزوات التي خاضها المسلمون من أجل الدّفاع عن عقيدتهم، والحرص على نشر دعوتهم في شتى الأقطار، وهو ما أوجد شعراً وافراً يواكب تلك الغزوات، ويعبّر عنها، ويستلهم المفهومات الدّينية في مضامينه التي يتناولها.

وقد آثرت أن تتناول هذه الدّراسة (شعر غزوات النبي ﷺ) للوقوف على هذا الشّعْر، ومعرفة أبعاده وتصوّراته، وما يحمله من قيم فنيّة وسمات خاصّة.

أمّا المنهج الذي اتّبعت في هذه الدّراسة فيقوم على الجمع بين المنهجين الاستقرائي والتحليلي الفنّي في الوقوف عند شعر الغزوات، وبيان الجوانب التي تناولها، وقد اقتصرت الدّراسة على الغزوات التي قيل فيها شعر، أمّا التي لم يرد فيها شعر فقد استثنيتها، وأوردت ما جاء نادراً من شعر في بعض الغزوات في ثنايا البحث، كما تناولت الدّراسة الجوانب الفنية في شعر الغزوات وذلك من خلال الوقوف على بعض القيم الفنّيّة والسمات الأسلوبية.

وقد تكوّنت خطّة البحث من فصلين، يسبقهما مقدّمة، وتتلوها الخاتمة، وتفصيل ذلك كالآتي:

الفصل الأوّل بعنوان: (الشّعْر في مواكبة الغزوات). واشتمل على المباحث التّالية:

- (١) - غزوة بدر.
- (٢) - غزوة أحد.
- (٣) - غزوة الخندق.
- (٤) - غزوة مؤتة.
- (٥) - فتح مكّة.

أمَّا الفصل الثاني فهو بعنوان: ((القيم الفنيّة في شعر الغزوات)).

واشتمل على المباحث التالية:

(١) أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر.

(٢) اللغة الشعريّة.

(٣) الصّورة الفنيّة.

وأخيراً جاءت الخاتمة، وتضمّنت خلاصة للبحث.

أمَّا الفهرسان، فكان أحدهما للمصادر والمراجع، والآخر للموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنّه خير
مسؤول. وصلى الله على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.



الفصل الأول: الشعر في مواكبة الغزوات

كان عصر صدر الإسلام حافلاً بالوقائع المتوالية ضدّ المشركين، إذ كانت المعارك تدور معركة في إثر معركة، وقد أوجد ذلك صوراً مفعمة بالبسالة والتضحية بين المجاهدين الذين كانوا يلاقون عتاة المشركين ويتصدّون لهم، ويوقعون بهم الهزائم، وذلك ما صوره الشعر في تلك الفترة، فقد واكب الأحداث، وأبرزها في صورة واضحة للعيان، تعبّر عن عظم المهمة التي قام بها أولئك المجاهدون، وما قدموه خلالها من التضحية بالنفس والتفيس.

وهو ما يدلّ على الدور العظيم الذي قام به الرسول الكريم - ﷺ - فقد استطاع أن يطوّر الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والحربية خلال - عقدين ونيف من الزمن، وأن يجهّز الجيوش والفرسان لنشر الدعوة الإسلامية في مختلف الأمصار وقد صوّر الشعراء غزوات الرسول ﷺ ومعاركه، وعلى رأسهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة - رضوان الله عليهم أجمعين - الذين جاء شعرهم ناطقاً حياً ومعبراً صادقاً عن المعارك والغزوات، سواءً أكانت داخل الجزيرة العربية أم خارجها، فجاء الشعر مفعماً بتصوير تلك الملاحم البطولية، التي سطرها المسلمون، وقدموا خلالها أروع التضحيات من أجل نصرة الدعوة الإسلامية.

ومن يتأمل في أثر الشعر في تلك الحقبة الزمنية، وقدرته على حفز الهمم والعزائم يدرك ما كان ينبغي أن يصنعه الشعر من تأثير فاعل في مواجهة الأعداء الذين ما فتئوا يسيئون للدعوة الإسلامية ويهجون الرسول الكريم والمسلمين، وهو ما ظهر جلياً في أشعارهم التي ردّت عادية الأعداء، وتصدّت لسهامهم، فكانت تقوم بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وذلك ما أبان عنه بوضوح الحديث النبوي الشريف الذي روته عائشة - رضي الله تعالى عنها - أنّ رسول الله ﷺ قال: «أهجو قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجم فهاجمهم، فلم يُرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم إلى حسّان بن ثابت، فلمّا دخل حسّان قال: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبيه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه ثم قال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلم قريش بأنسائها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسي، فأتاه حسّان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين». قالت

عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هجاهم حسن فشفى واشتفى»^(١).
وقد عدَّ النبي ﷺ الشعر المدافع عن الإسلام نوعاً من أنواع الجهاد، وذلك في قوله ﷺ:
«المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترموهم به نضح التَّبَلِّ»^(٢).
فكان شعراء المسلمين يشاركون بقصائدهم في كل ما يعرض من أحداث، ويصفون
المعارك الإسلامية.

وسوف يظهر بوضوح أثر شعر الغزوات في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين
والمشركين، وإبراز القيم الإسلامية السامية التي أفصح عنها المسلمون، وهم يسرون في
الغزوات، ويجوضون المعارك، وتتحقق لهم الفتوح التي طالما انتظروها، لينشروا دعوتهم
الإسلامية في كل الآفاق، ويعلنوا عن دينهم الحق الذي ارتضاه المولى - عزَّ وجلَّ -
ديناً لكل البشرية. وفي مقدِّمة تلك الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النَّبِيِّ ﷺ:

(١) غزوة بدر:

لقد سجَّل الشعر غزوات النَّبِيِّ ﷺ والوقائع التي دارت بين المسلمين والمشركين، وقد
كانت البداية الأولى غزوة بدر التي التقى فيها المسلمون بحافل قريش، وأذاقوهم مرارة
الهزيمة، وقتلوا كبار رجالهم، وتركوهم مجندين في أرض المعركة، حيث قُتل أبو جهل
وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم من كبار المشركين الذين تحالفوا على حرب
المسلمين، وهو الجانب الذي صوَّره حسن بن ثابت ﷺ في قصيدته الرائية التي يقول
فيها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى مَكَّةَ الَّذِي قَتَلْنَا مِنَ الْكُفَّارِ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ
قَتَلْنَا سَرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَّا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ بَعْدَهُ وَشَيْبَةَ أَيْضاً عِنْدَ ثَائِرَةِ الصَّبْرِ^(٣)
وَكَمْ قَد قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزَّوٍ لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِهِ الدُّكْرِ

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٣٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٦٥.

(٣) عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ: ابنا ربيعة بن عبد شمس من كبار قريش وساداتها، وقد قُتلا في بدر.

تَرَكْنَاهُمْ لِلخَامِعَاتِ^(١) تَتَوَّبُهُمْ وَيَصْلُونَ نَاراً ثُمَّ نَائِبَةَ القَعْرِ
بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَالِدِّينُ قَائِمٌ وَمَا طَلَبُوا فِينَا بِطَائِلَةِ الوَثْرِ
لَعَمْرِي لَقَدْ قَلَّتْ كِتَابُ غَالِبٍ وَمَا ظَفَرْتُ يَوْمَ التَّقِينَا عَلَى بَدْرِ
لَقَدْ شَقِيَتْ كَعْبٌ جَمِيعاً وَعَامُرٌ بِأَسْيَافِنَا يَوْمَ التَّقِينَا عَلَى بَدْرِ
قَتَلْنَاهُمْ قَتَلَ الكِلَابِ فَلَمْ نَدَعِ لَهُمْ فِي جَمِيعِ النَّاسِ يَا صَاحِ مِنْ فَخْرٍ^(٢)

ولقد كان رسوخ المعتقد في نفوس الشعراء يدعوهم إلى التوكل على الله، والثقة به، ورجاء النصر الذي لن يفارقهم ما داموا متوكلين على خالقهم - عز وجل - غير آبهين بالأعداء ولا بكثرة عددهم وعتادهم، وهو ما صوره حسّان - رضي الله عنه - يوم بدر، عندما لقوا الكفار بعزيمة قويّة، وإرادة عالية، فكان النصر حليفهم، رغم كثرة عدد المشركين، حيث يقول في هذا المعنى:

فَمَا نُخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا وَإِنْ كَثُرُوا وَأُجْمَعَتِ الرُّحُوفُ
إِذَا مَا أَلْبُوا جَمْعًا عَلَيْنَا كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبُّ رُؤُوفُ
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرِ بِالْعَالِي سِرَاعًا مَا تُضَعِّعُنَا الحُتُوفُ
فَلَمْ تَرِ عَصَبَةٌ فِي النَّاسِ أَنْكَى لِمَنْ عَادُوا إِذَا لَفَحَتْ كَشُوفُ
وَلَكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا مَا تَرْنَا وَمَعَقَلْنَا السُّيُوفُ
لَقِينَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفُ^(٣)

فهذه الأبيات تحمل في دلالتها المعنى العميق لآيات القرآن الكريم في نفس الشاعر، فقد استلهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنفال، وأبان عنه في البيت الأول: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٤) (٥).

(١) الخَامِعَاتُ: الخَامِعَةُ الصَّبِيغُ، سُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَخْتَمِعُ إِذَا مَشَتْ. (انظر: اللسان ٨/٧٩).

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٦٦. تحقيق: د. سيد حنفي حسنين.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٣٩١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٥) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر د. عبد الرحيم زلط ص ١٤٢.

حيث تحمل الأبيات الشعرية معاني التضحية والفداء، والرغبة في الجهاد في سبيل الله صفاً واحداً، ونبذ الهيبة من الأعداء مهما بلغوا من الكثرة في العدد والعتاد، وهذه العزيمة الصادقة أبرزتها كثير من القصائد الشعرية التي تناولت الغزوات، ووصفت ما دار فيها من قوة المواجهة بين الجيشين.

وفي وصف غزوة بدر يشير حسان رضي الله عنه إلى عظم قدرة الله تعالى، وكيف أنه نصر جنده في تلك الموقعة، وحذل المشركين المعاندين، الذين تكبروا وتجبروا على دعوة الحق، فأملهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول:

وَجَبْرٌ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ بِصِدْقٍ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكُذُوبِ
 بِمَا صَنَعَ الْمَلِيكُ غَدَاةَ ِ بَدْرِ لَنَا فِي الْمَشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ
 غَدَاةَ ِ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ حِرَاءٌ بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الْعُرُوبِ
 فَلَا قَيْنَاهُمْ مَنَا بِجَمْعٍ كَأَسَدِ الْغَابِ مِنْ مُرْدٍ وَشَيْبِ
 أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ أَرْزَوْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي وَهَجِ الْخُرُوبِ
 بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ وَكُلُّ مَجْرَبٍ خَاطِي الْكُغُوبِ
 فَعَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحاً وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجُبُوبِ
 وَشِيبة ِ قَدْ تَرَكْنَا فِي رِجَالٍ ذَوِي حَسَبٍ إِذَا انْتَسَبُوا حَسِيبِ^(١)

حيث أبانت هذه الأبيات عن شدة موقعة بدر، وما حدث فيها من قتل سادة قريش وفرسانهم، فقد تركوا مجندين في أرض المعركة والطير تحوم فوقهم في مشهد يدل على بسالة المجاهدين، وتمكنهم من أعدائهم. ولا غرابة في ذلك فقد كانت التضحية والفداء تتقدمان تلك المعركة، وذلك حين تسابق الصحابة - رضوان الله عليهم - لحمل السلاح ومقاتلة أعداء الإسلام، وذلك سعياً وراء رضوان الله تعالى، وطمعاً بجنته التي وعد بها الشهداء في سبيله. وحينما قال الرسول ﷺ يوم بدر: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»^(٢)، فقال عمير بن الحمام السلمي رضي الله عنه، وكان يأكل تمرات بيده: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل، وهو يقول:

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢٧، تحقيق: مصطفى السقا وأحران.

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التَّقَى وَعَمَلِ المَعَادِ
وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ عَلَى الجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّقَادِ
غَيْرُ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ^(١)

* * *

(٢) غزوة أحد:

تعدُّ غزوة أحد الموقعة الثانية التي دارت بين المسلمين وكفار قريش بالمدينة المنورة، وذلك حين عزم كفار قريش على أن يثأروا لهزيمتهم ببدر، وما أصابهم فيها من الخسائر في الأرواح والأموال وسقوط هيبتهم، حيث بدأوا يعدُّون العُدَّة لأخذ الثَّأر من المسلمين، فجمعوا قبائلهم وعشائرهم ومن حالفهم من مكَّة وجوارها وجاءوا قاصدين النَّيْل من رسول الله ﷺ في عدد من الرِّجال يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المسلمين الذين خرجوا وثبتوا لهذه المعركة لا يزيد على الأربعمئة مجاهد، وقد انتهت المعركة لصالح المشركين، حيث استطاع الكفار قتل بعض قادة المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ ورجع الرسول ﷺ بمن معه من الرِّجال إلى المدينة، بينما عادت جحافل الكفار ومعهم جرحاهم وقلوبهم فرحة الثَّأر لقتلهم في بدر التي حاقت بهم الهزيمة فيها.

وقد كان للشُّعر دوره في غزوة أحد، حيث وصف الشُّعراء ما دار فيها من أحداث ومواقف، ودارت مساجلات بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار، ورثى الشُّعراء من استشهدوا في تلك الغزوة، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ^(٢).

وأولى هذه القصائد التي نظمها الشُّعراء في تلك الغزوة قصيدة حسَّان بن ثابت ﷺ التي ردَّ فيها على هُبيرة بن أبي وهب المخزومي - شاعر المشركين - الذي خالجه السُّرور والتَّعالي بما حقَّقه قومه في أحد، وهو ما ظهر في قصيدته التي يقول مطلعها:

سُقْنَا كِنَانَةَ مَنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ عُرْضِ البِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا^(٣)

فقد ردَّ عليه حسَّان بن ثابت ﷺ بقوله:

(١) تاريخ الرُّسل والملوك للطَّبْرِي ٤٤٨/٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦١.

(٣) السِّيرة النَّبَوِيَّة ١٣٠/٣.

سُتُّمُ كِنَانَةَ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنِدُ اللَّهِ مُخْرِبِهَا
 أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالِنَّارَ مَوْعِدُهَا، وَالْقَتْلَ لَاقِيَهَا
 أَنْتُمْ أَحَابِيشُ جُمُعْتُمْ بِلا نَسَبٍ أئِمَّةُ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا
 هَلَا أَعْتَبَرْتُمْ بِحَيْلِ اللَّهِ إِذْ لَقِيَتْ أَهْلَ الْقَلْبِ وَمَنْ أَرَدَيْتَهُ فِيهَا
 كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَنَّاهُ بِلا تَمَنٍّ وَجَرَّ نَاصِيَةَ كُنَّا مَوَالِيهَا^(١)

حيث يشير حسَّان - ﷺ - إلى صنيع المشركين وجهلهم، حين ساقوا جيوشهم من بني كنانة لقتال النبي - ﷺ - والمسلمين وكيف أنهم رجعوا خائبين خاسرين أمام جند الله الذين أذاقوهم مرارة الهزيمة، بل يشير حسَّان إلى صنيع المسلمين بأسرى بدر الذين أطلقوهم بلا ثمن، ليعلم أولئك عظمة النصر الذي حقَّقه المسلمون وعلو مكانته. أمَّا كعب بن مالك - ﷺ - فقد أجاب هُبيرة بقصيدة طويلة وصفت ما دار في غزوة أحد، وما حفلت به الموقعة من شدَّة وضراوة، حيث بدأ قصيدته بوصف مكان المعركة، وأنها كانت أرضاً صعبة المسالك وعرة الدروب، لا يسلكها إلا حمر الوحش أو النعام، وقد امتلأت بالجيف من مخلفات الوحوش وعظام الفرائس، يقول:

أَلَا هَلْ أَتَى عَسَانَ عَنَا وَدُونَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ حَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعِعُ^(٢)
 صَحَارٍ وَأَعْلَامٍ كَأَنَّ فَتَامَهَا مِنْ الْبُعْدِ نَفْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطُّ^(٣)
 تَظَلُّ بِهِ الْبُرُلُ الْعَرَامِيْسُ رُزْحًا وَيَخْلُو بِهِ عَيْثُ السِّنِّينِ فَيُجْرِعُ^(٤)
 بِهِ جَيْفُ الْحُسْرَى يَلُوحُ صَلِيْبُهَا كَمَا لَاحَ كِتَابُ التَّجَارِ الْمَوْضِعِ^(٥)
 بِهِ الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِيْنَ خَلْفَةً وَيَبِيضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ^(٦) يَتَقَلَّعُ^(٧)

ثمَّ يصف كعب ﷺ بطولة المؤمنين الدائدين عن دين الله، مذكراً المشركين في أحد بهزيمتهم السَّاحقة التي واجهتهم في بدر، يقول:

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٠٥.

(٢) الحرق: الفلاة التي تنحرق فيها الرِّيح. ومتنوع: مضطرب.

(٣) الأعلام: الجبال المرتفعة. والقتام: ما مال لونه إلى السَّواد.

(٤) البرُّل: جمع بارل وهو البعير القوي. والعزمس: النَّاقة الشَّديدة. ويعرع: يخصب.

(٥) الصَّليب: ودك العظام. والموضِع: المبسوط والمنقوش.

(٦) العين: البقر الوحشي. الأرام: الطَّباء. القَيْض: قشر البيض الأعلى.

(٧) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٢.

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فَحْمَةٍ^(١) مُدْرَبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ^(٢)

وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصُّوَانِ كَأَنَّهَا إِذَا لَبِسَتْ نَهْيً مِّنَ الْمَاءِ مُتْرَعٌ^(٣)

وَلَكِنْ يَبْدُرُ سَائِلُوا مَنْ لَقَيْتُمْ مِّنَ النَّاسِ، وَالْأَنْبَاءُ بِالْعَيْبِ تَنْفَعُ^(٤)

ثم يشير كعب ﷺ إلى الاستعداد النفسي لتلك الموقعة، وكيف أنّ الكفار ضربوا خيامهم وأبنتهم بأرض المعركة، ورأى المؤمنون كثرتها فتشاوروا فيما بينهم ماذا يمنعهم من الشكوت على ما بدأهم به الكفار؟ وكيف لا يتشاورون مع رسول الله ﷺ فيما ينبغي فعله؟ فقلوله الحق، ومن أعرض عن نصحه فقد باء بالخسران، وبعد المشاورة أبان لهم الرسول ﷺ أنّ من كانت نيته للجهاد حقيقةً والطمع فيما عند الله تعالى فعليه أن يشمر لذلك؛ ليظفر بما أعدّه الله - عزّ وجلّ - لعباده المؤمنين الصادقين^(٥)، وفي ذلك يقول:

وَلَمَّا ابْتَنَوْا بِالْعِرْضِ^(٦) قَالَ سَرَاتِنَا عَلامَ إِذَا لَمْ تَمْنَعِ الْعِرْضَ نَزْرَعُ؟

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَتَطَّلَعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ يُنَزِّلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

نُشَاوَرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا^(٧) إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا دَرُوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمِيَّاتِ واطمعموا

وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقْرُبًا إِلَى مَلِكٍ يُحْيِي لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ

(١) قال ابن هشام: وكان كعب بن مالك قد قال: مجالدنا عن جذمنا كل فحمة. فقال رسول الله ﷺ: أيا صلح أن تقول مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم. فقال رسول الله ﷺ: فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا. (انظر السيرة النبوية ١٣٦/٢).

(٢) مجالدنا: مدافعنا. والفحمة: الكتيبة العظيمة. المدربة: المتعوده على القتال الماهرة فيه.

(٣) الصموت: الدرع. الصوان: كل ما يُصان فيه الشيء، درعاً كان أو ثوباً أو غيرها. النهي: الغدير. ومترع: أي: مملوء ماءً.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٣.

(٥) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦٥.

(٦) العرض: موضع خارج المدينة. وكلُّ وادٍ فيه شجر فهو عرض.

(٧) قصرنا: غايبتنا ونهاية أمرنا.

ولكن خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعِ
 فَسِرْنَا عَلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ ضَحِيًّا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَحَشَّعُ^(١)
 ثم يصل كعب ﷺ - إلى وصف المعركة وأحداثها، بدءاً من بيان عدد المقاتلين من
 الطرفين، وانتهاءً بما حدث في أرض المعركة من التحام الجيشين، حيث تُسَدَّد الطعنات،
 وتُصَوَّب الرِّمَاح، وتُفْرَع الخيول، وتسبح في الفضاء كأثام الجراد المنتشر، وفي ذلك يقول:
 فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَّهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعٌ
 ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ^(٢) ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كُنْزْنَا وَأَرْبَعُ
 نُعَاوِرُهُمْ بَحْرِي الْمَيْتَةِ بَيْنَنَا نُشَارِعُهُمْ^(٣) حَوْضَ الْمَنَابِيَا وَنَشْرَعُ
 تَهَادَى قِسِي النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرِيُّ^(٤) الْمَقْطَعُ
 وَمِنْجُوفَةٌ حَرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ^(٥) يُدْرُ عَلَيْهَا السُّمُّ سَاعَةً تُصْنَعُ
 تُصُوبُ بِأَبْدَانِ الرَّجَالِ وَتَارَةٌ تَمُرُّ بِأَعْرَاضِ الْبِصَارِ تُفَعِّعُ^(٦)
 وَخَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا جَرَادٌ صَبَأٌ فِي قَرَّةٍ يَتَرَّعُ^(٧)
 فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةُ اللَّهِ مَدْفَعُ
 ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَائِهِمْ^(٨) كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ
 فَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرَمْنَا فَعَلْنَا، وَلَكِنْ مَا لَدَى اللَّهِ أَوْسَعُ

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) النَّصِيَّةُ: الخيار من القوم.

(٣) نُعَاوِرُهُمْ: أي نغير عليهم. ونُشَارِعُهُمْ: أي نشارعهم.

(٤) الْيَثْرِيُّ: الأوتار، نسبة إلى يثرب.

(٥) الْمِنْجُوفَةُ: السَّهْمُ الْمُثَقَّفَةُ. وَالْحَرْمِيَّةُ: نسبة إلى أهل الحرم. وَالصَّاعِدِيَّةُ: نسبة إلى صاعد، وهو صانع معروف.

(٦) تَصُوبُ: تقع. وَالْبِصَارُ: الحجارَةُ اللَّيْنَةُ. وَتُفَعِّعُ: تُصَوِّتُ.

(٧) الصَّبَا: ريحٌ شَرْقِيَّةٌ. وَالْقَرَّةُ: البرد. وَيَتَرَّعُ: يجيء ويذهب.

(٨) سَرَائِهِمْ: خيارهم.

وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ وَقَدْ جُعِلُوا كُلٌّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ^(١)
ويجتتم كعب ﷺ قصيدته بتعداد صفات جيش المسلمين في أنهم يقدمون على الحرب
متى كانت دفاعاً عن عرض أو عقيدة وليس لمغنم دنيوي، وأهم تدربوا على الحرب
وألفوها، فلا يهابون أعداءهم، ولا يتراجعون في المواجهة، وقد عرفوا آداب القتال فلا
يجزعون إن أُصيبوا، فالحرب سجل دائم، وإن ظفروا بالعدو فلا فحش ولا تمثيل
بالقتلى أو إذلال للأسرى وإنما منهج الإسلام في معاملة المتحاربين والأسرى^(٢)، حيث
يقول كعب واصفاً بطولة ذلك الجيش المسلم:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الدَّمَارَ^(٣) وَيَمْنَعُ
وَلَكِنَّا نَقْلِي الْفِرَارَ، وَلَا نَرَى الـ فِرَارَ لِمَنْ يَرْجُو الْعَوَاقِبَ يَنْفَعُ
جِلَادٌ^(٤) عَلَى رِيبِ الْحَوَادِثِ لَا تَرَى عَلَى هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرَ تَدْمَعُ
بُنُو الْحَرْبِ لَا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ وَلَا نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ بَجَزَعُ
بُنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَفَرُ فَلَسْنَا بِفَحْشٍ وَلَا نَحْنُ مِنْ أَظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ
وَكُنَّا شَهَابًا يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهُ وَيَفْرُجُ عَنْهُ مَنْ يَلِيهِ وَيُسْفَعُ^(٥)

وبينما كانت المعارك تدور بين المسلمين والمشركين فقد كان هناك من يفخر من
المشركين بما تحقّق في غزوة أحد ناسياً صنيع المسلمين في بدر، ومن أولئك الشعراء عبد
الله بن الزبير^(٦) الذي افتخر في إحدى قصائده التي يقول فيها:

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ قُتْلُ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ
إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلَ
مَا جِدِ الْجَدِّينِ مِقْدَامٍ بَطْلُ

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٢) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٦٨.

(٣) السُّبَّةُ: العار. والدَّمَارُ: ما يجب على الرجل حمايته.

(٤) جِلَادٌ: جمع جليدٍ وجلدٍ وهو الصَّلْبُ.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٦) هو عبد الله بن الزبير بن قيس بن عدي بن سعد السهمي القرشي، كان شديداً على المسلمين
يهجوهم ويحرض المشركين عليهم، وقد أسلم بعد فتح مكة، واعتذر من النبي ﷺ عمّا بدر منه. وكانت
وفاته سنة ١٥هـ. (انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١٦٠/٣).

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدْرِ شَهَدُوا جَزَعَ الْحَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(١)

فانبرى له حسّان بن ثابت - ﷺ - يردّ عليه، ويبيّن له أنّ الحرب سجال بين الطرفين، وأنّ المسلمين قد نالوا من المشركين في أحد كما نال المشركون منهم، مذكراً إيّاه بما لاقوه من الهزيمة في ((بدر))، وكيف قتل سادتهم، وهرب فرسانهم في تلك الموقعة، وباءوا بالخزي والخذلان، حيث يقول حسّان ﷺ:

ذَهَبَتْ بَابِنِ الرَّبْعَرَى وَقَعَةً كَانَ مِمَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلَ
ولقد نلتهم وذلنا منكم
نضغُ الْأَسْيَافَ فِي أَكْتَفَائِكُمْ وَكَذَاكَ الْحَرْبُ أحياناً دُولُ
إِذْ تُؤَلُّونَ عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ حَيْثُ نَهْوِي عَلاًَّ بَعْدَ نَهْلِنِ
إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً هُرْباً فِي الشُّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسْلِ^(٢)
وَعَلَّوْنَا يَوْمَ (بَدْرٍ) بِالثُّقَى فَأَجَانَاكُمْ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
وَتَرَكْنَا فِي قُرَيْشٍ عَوْرَةً طَاعَةَ اللَّهِ، وَتَصَدِيقِ الرَّسْلِ
يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَادِيثِ الْمَثَلِ^(٣)

أمّا كعب بن مالك ﷺ فيرّد في قصيدته اللامية على كل من تناول على المسلمين من شعراء قريش، ويوضح لهم أنّه إذا كان هناك من قادة المسلمين من قُتل في (أحد)، وهو ما أفرح المشركين وشعراءهم فإنّ عليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى ما أصابهم في (بدر)، وما واجهوه من صور البطولة والتضحية التي أبداهها المسلمون^(٤)، حيث يقول:

أَبْلَغُ قُرَيْشاً وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدُقُهُ وَالصَّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَائِكُمْ أَهْلَ اللَّوَاءِ، ففيم يكثُرُ القَيْلُ؟
ويومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مَيْكَالُ وَجَبْرِيلُ

(١) شعر عبد الله بن الزبير ص ٤١ - ٤٢، تحقيق: د. يحيى الجبوري.

(٢) الرّسّل: الإبل المرسلّة بعضها في إثر بعض.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٩٣ - ٩٤.

(٤) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٧٠.

إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ اللَّهِ فِطْرُنَا وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلٌ
وَإِنْ تَرَوْا أَمْرًا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهًا فَرَأْيِي مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلٌ
فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الْحَرْبِ وَاقْتَعِدُوا إِنَّ أَخَا الْحَرْبِ أَصْدَى اللَّوْنِ مَشْعُولٌ^(١)
إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تَرَاحُ لَهُ عُرْجُ الضَّبَاعِ لَهُ خَذَمٌ رَعَائِلُ^(٢)
إِنَّا بَنُو الْحَرْبِ مَمْرِيهَا وَنَنْتَجُهَا وَعِنْدَنَا لِدَوِي الْأَضْغَانِ تَنْكِيلُ^(٣)

وكما يظهر فقد أثرت غزوة أحد في نفوس الشعراء في عهد النبي ﷺ، ودعتهم إلى التجاوب معها، والتعبير عن مواقفها وأحداثها، والتصدي لمن حاول الإساءة للنبي ﷺ - وللمسلمين، وهو ما قام به شعراء المشركين بعد الواقعة، الأمر الذي دعا شعراء المسلمين إلى الرد عليهم، وكشف أكاذيبهم وتحزباتهم، وبيان أثر الإسلام في كل ما تحقق للمسلمين من عزّة ومنعة.

(٣) - غزوة الخندق:

في السنة الخامسة للهجرة تجمعت قوى الشرك لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين بالمدينة، وتزعّم أبو سفيان تلك الجموع من القرشيين ومن والاهم من غطفان والقبائل المجاورة، ويأتي الجميع إلى المدينة المنورة قاصدين القضاء على الإسلام بحافلهم وعدتهم الحريّة التي لم يكن للمسلمين قبل بها، ولم يكتفوا بذلك بل تعاهدوا مع يهود بني قريظة في حصونهم حول المدينة من أجل القضاء على المسلمين.

ولما علم رسول الله ﷺ بتآمرهم وتحزبهم جمع المسلمين وأعلمهم ما عزم عليه أبو سفيان ومنّ والاه من غطفان واليهود، وتشاور معهم، وانتهت مشورتهم بحفر خندق حول المدينة حتى يمكنهم التحصن فيها، فإذا دهمهم العدو نالوه ولا ينالهم، وبدأ المسلمون حفر الخندق، وكان الرسول ﷺ يعاونهم في حفره ويشدّ من عزيمتهم، ويرغبهم فيما عند الله تعالى من الأجر^(٤)، حتى إذا اكتمل حفر الخندق جاءت فلول المشركين التي تجمعت من قبائل عدّة، وتحزبت لحرب المسلمين، يقودهم إلى ذلك طمعهم واستكبارهم وعتوهم، حيث نزلوا بجانب أحد^(٥)، وهناك ظهر لهم المسلمون الذين كان عددهم يقدر بثلاثة آلاف، والخندق يفصل بين الفريقين، فخرج من بين صفوف

(١) لِقَاحُ الْحَرْبِ: زيادتها ونموها. وأصدى اللون: لونه بين السّواد والحُمْرة. ومَشْعُولٌ: أي متقدّ متلهب.

(٢) تَرَاحٌ: تفرخ وتهتر. والخذم: قطع اللحم. والرعايل: المتقطعة.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٤) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٩٤.

(٥) السيرة النبوية ٢/٢١٦ - ٢١٧.

المشركين عمرو بن ود العامري - وكان مُعلماً - وقال: مَنْ يُبارز؟ فخرج له من المسلمين عليُّ بن أبي طالب ﷺ وقال له: يا عمرو إنك عاهدت الله ألا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فقال له: أجل، فقال له عليٌّ: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا ابن أخي؟ فو الله ما أحبُّ أن أقتلك، فقال له عليٌّ: لكئي والله أحبُّ أن أقتلك، فحمني عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعفره، وضرب وجهه، ثم أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ ﷺ وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة^(١).

وقد وصف عليٌّ - ﷺ - ذلك الحدث والموقف الشجاع الذي أبان عن قوّة المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام في أبيات شعرية، قال فيها:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي
فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلاً كَالْجِدْعِ بَيْنَ دَكَاذِكِ وَرَوَابِي^(٢)
وَعَقَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَزْنِي أَنْوَابِي^(٣)
لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَازِلَ دِينِهِ وَنَيْيِهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْرَابِ^(٤)

وقد شكك ابن هشام في نسبة هذه الأبيات لعليِّ بن أبي طالب ﷺ^(٥). ولم يكن تحزُّب الأعداء واتِّحادهم لحرب المسلمين أمراً يثير الهيبة أو الخوف في قلوب المجاهدين، الذين نذروا أنفسهم للدِّفاع عن عقيدتهم، ونصرة نبيِّهم ﷺ حيث لقاء الأعداء هو لقاء الشجاعة، والنُّصرة، والتُّضحية لقوم دَرَبوا على القتال، وعَلِموا أنفسهم في الحرب حتى أصبحوا ظاهرين للنَّاس جميعاً، وكأَنَّهُمْ أُسُودٌ يَحْمُونَ عَرِينَهُمْ، ويدافعون عن رسالتهم الخالدة^(٦).. وهي المعاني التي أشار إليها كعب بن مالك ﷺ في قصيدته التي قالها يوم الخندق، حيث قال:

(١) السِّيرة النَّبَوِيَّة ٢/٢٢٥.

(٢) مُتَجَدِّلاً لاصقاً بالأرض. والجِدْعُ: فرع النَّخلة. والدَّكْدُكُ والدَّكْدَاكُ: أرضٌ فيها غلظ، والجمع دَكَاذِكُ.

(٣) الْمُقَطَّرُ: الذي ألقى أحد قطريه، أي جنبيه، والقطر: الجانب. وبزني: سلبني.

(٤) السِّيرة النَّبَوِيَّة ٢/٢٢٥.

(٥) المصدر السَّابِق ٢/٢٢٥.

(٦) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٩٦.

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يُمْعَمِ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعَمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمِخْرَقِ (١)
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفُهَا بَيْنَ الْمِدَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخُنْدَقِ (٢)
دَرُّوا بِضَرْبِ الْمُعْلِمِينَ (٣) وَأَسْلَمُوا مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ
فِي عُصْبَةِ نَصَرَ الْإِلَهِ نَبِيِّهِ بِهِمْ، وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ (٤)

ويعمضي كعب رضي الله عنه في قصيدته إلى وصف السلاح، فيصوّر الدروع تحكي حلقاتها في سردها المحكم وشكلها الموثق أحداق الجنادب، فهي مستديرة الحلق، تشمّرها للحرب حمائل السيوف الصّارمة، حيث يقول:

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخْطُ فُضُوهَا كَالنَّهْيِ (٥) هَبَّتْ رِيحُهُ الْمَتْرَفِ
بَيْضَاءِ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا حَدَقَ الْجِنَادِبِ ذَاتَ شَكِّ مُوثِقِ (٦)
جَدَلَاءِ يَحْفِزُهَا بِجَادُ (٧) مُهَنَّدِ صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمِ ذِي رُوْتِقِ
تِلْكَ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الْهِيَاجِ وَكُلِّ سَاعَةٍ مَصْدَقِ (٨)

والبيت الأخير يصوّر أهمية التقوى والإيمان في الحروب التي يخوضها المسلمون؛ إذ ليس من طبعهم أن يركنوا إلى العدة المادّية دون أن يدّخروا في نفوسهم زاد التقوى الذي يوصلهم إلى غايتهم الكبرى التي يبتغونها من وراء نصرتهم للإسلام. أمّا الإعداد للمعركة - وهو الجانب الذي أمر به المسلمون وهم يواجهون أعداءهم - فيشير إليه كعب بن مالك من خلال إعداد الخيول الأصيلة المضمّرة، التي تصعد بفرسانها إلى حلبة القتال، وتمكّنهم من اصطيد أعدائهم، والظفر عليهم، يقول:

- (١) المعمة: اختلاط الأصوات وشدة زجلها. الأباء: القصب، ومعمة الأباء: صوت الحريق في
(٢) المأسدة: الموضع الذي تجتمع فيه الأسود. وتسنُّ: تحد. والمداد: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق،
وقيل هو بين سلع وخندق المدينة. والجرع: الجانب.
(٣) المعلمين: الذين يُعلّمون أنفسهم في الحرب بعلامة يُعرفون بها.
(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٤.
(٥) السابغة: الدروع الكاملة. النهي: الغدير من الماء.
(٦) القتيير: مسامير الدروع. والجنادب: ذكور الجراد. والشك: إحكام السرد.
(٧) الجدلاء: الدروع المحكّمة أو المدوّرة الحلق. ويحفزها: يرفعها. والتجاد: حمائل السيوف.
(٨) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥.

وَنُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مُقْلَصٍ وَرَدٍ وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ^(١)
تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ عِنْدَ الْهِيَاجِ أُسُودٌ طَلٌّ مُلْثَقِ^(٢)
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الْكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ تَحْتَ الْعِمَايَةِ بِالْوَشِيحِ الْمُزْهِقِ^(٣)
أَمَرَ الْإِلَٰهَ بِرَبِّطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الْحَرْبِ، إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُوقِّقِ
لِتَكُونَ غَيْظًا لِلْعَدُوِّ وَحِيْطًا لِلدَّارِ إِنْ دَلَقْتَ خِيُولَ النَّزْقِ^(٤)
وَيُعِينُنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ مِنْهُ، وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةً نَلْتَقِي
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَجُبِيئِهِ وَإِذَا دَعَا لِكِرِيهَةٍ لَمْ نُسَبِّقِ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا وَمَتَى نَرِ الْحَوْمَاتِ^(٥) فِيهَا نُعْبِقِ^(٦)

وفي هذه الموقعة تظهر أكثر من قصيدة شعرية وهي تنافح عن المسلمين، وترد عادية الأعداء، ومن تلك القصائد قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه التي تصدَّى فيها للرد على شاعر الكفار آنذاك عبد الله بن الزبير الذي أخذ يفتخر بموقف قومه يوم الخندق، ويتناول على المؤمنين، وذلك في قصيدته البائية^(٧). حيث نظم حسان بانيته التي يرد فيها على ابن الزبير، ويبين له الهدف البائس الذي جاءوا من أجله وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم والاستيلاء على الغنائم، ولكنهم لم يظفروا من ذلك بشيء، يقول حسان:

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قَتَلَ النَّبِيَّ وَمَعَنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِيهِمْ رُدُّوا بِعَيْظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ

(١) المقلص من الخيول: طويل القوائم ضامر البطن. والورد: الفرس الأشقر الذي حمرة لونه ذاهبة إلى الصفرة. والمجول: الذي في قوائمه بياض يخالف سائر لونه. والأبلق: إذا تجاوز البياض إلى عضديه وفخذه.

(٢) ترد: تُسرع. الكُمَاة: جمع كَمِيٍّ وهو الشجاع. المُلْتَقُ: ما يكون عن الطل من زلقٍ وطين.

(٣) العِمَايَةُ: سحابة العُبار وظلمته. والوشيح: الرماح. المزهق: المذهب للنفوس.

(٤) دَلَقْتَ: تقدّمت. النَّزْقُ: الطائشون، السبيخو الخلق.

(٥) الْحَوْمَاتُ: مواطن القتال، واحدها حَوْمَةٌ.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٧) انظر: ديوان عبد الله بن الزبير ص ٢٩، والقصيدة مطلعها:

حَيِّ الدِّيَارِ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا طُولُ الْبَلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ

يَهْبُوبُ مُعْصِفَةً تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ
وَكَفَى الْإِلَهَ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ
وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
وَأَتَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابٍ^(١)

ومن شعراء المشركين من ظلَّ يتوَعَّد بعد هزيمة الخندق، ويعد بردَّ قاسٍ في موقعة لاحقة يصطف منها جيش المشركين لمنازلة المسلمين، وذلك ما يعبر عنه شاعرهم ضرار بن الخطَّاب^(٢) الذي رأى أنَّ المعركة لم تنته بعد، وأن المنازلة ستكون قريبة، حيث يعبر عن ذلك في قصيدته النونية التي قال فيها:

وَمُشْفِقَةً تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا
وَقَدْ فُذْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا^(٣)
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ
كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِينَ
يَجْمَعُ مِنْ كِنَانَةٍ غَيْرِ عُزْلِ
كَأَسَدِ الْغَابِ قَدِ حَمَّتِ الْعَرِينَا^(٤)

لكنَّ كعب بن مالك رضي الله عنه يردُّ على ضرار بن الخطَّاب، ويوضح له طبيعة القتال معه، وأسباب النصر التي تنزل عليهم من خالقهم، فهم يسعون إلى رفع راية الإسلام، يتقدمهم النبي ﷺ الذي دعاهم إلى دين الهدى والحق، وحثهم على الصبر واليقين في مواجهة الأعداء، حيث قال:

وَسَائِلَةٌ تُسَائِلُ مَا لَقِينَا
وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَ
صَبْرُنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عِدْلًا^(٥)
عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَ
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزَيْرَ صِدْقٍ
بِهِ نَعْلُو الْبَرِّيَّةَ أَجْمَعِينَ
نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا
وَكَانُوا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ^(٥)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا
بِضَرْبٍ يُعْجِلُ الْمَتَسَرِّعِينَ

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٠.

(٢) هو ضرار بن الخطَّاب بن مرداس القرشي الفهري، فارس شاعر، قاتل المسلمين، واسلم يوم فتح مكة. (انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ١/٣٣٧).

(٣) العرندسة: الشديدة القويَّة، يريد الكتيبة. والطحون: التي تطحن كلَّ ما مرَّت به.

(٤) السيرة النبوية ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥) العذل: المثل.

(٥) المرصد: المعبد للأمر عُدتَه.

وَفِي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ بِمَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاعِغِينَا^(١)
بِيَابِ الْخُنْدَقَيْنِ كَأَنَّ أَسْدًا شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِينُ الْعَرِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهَ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقِ مُخْلِصِينَا
وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا وَأَحْزَابُ أَتَوْا مُتَحَرِّبِينَا
بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ^(٢)

وقد أراد الرسول ﷺ أن يؤمن المدينة وحدودها بعد موقعة الخندق مع قريش وبخاصة من الفتنة التي كان يوقد جذوتها يهود بني قريظة وبني النضير، الذين اشتركوا في موقعة الخندق مع قريش، وقصدوا إثارة الفتنة بين الناس في المدينة أثناء الموقعة، حيث نقضوا عهود الأمان التي أبرمها المسلمون، ولجأوا للغدر والمكيدة، لأجل ذلك وجه النبي ﷺ جيشه لمحاربتهم، حيث حاصرهم في حصونهم، وانتصر عليهم، وباءت كل مكائدهم بالفشل، ونالوا جزاء ما كانوا يفعلونه مع المسلمين من الإخلاف بالعهد والتحالف مع المشركين، يقول حسان رضي الله عنه:

لَقَدْ لَقَيْتَ فُرْطَةً مَا سَاءَهَا وَحَلَّ بِحِصْنِهَا دُلٌّ ذَلِيلٌ
فَمَا بَرِحُوا بِنَقْضِ الْعَهْدِ حَتَّى غَرَّاهُمْ فِي دِيَارِهِمُ الرَّسُولُ
أَحَاطَ بِحِصْنِهِمْ مَنَّا صُفُوفٌ لَهُ مِنْ حَرٍّ وَقَعَتْهَا صَلِيلٌ
وَصَارَ الْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ خُلْدٍ أَقَامَ لَهُمْ بِهَا ظِلٌّ ظَلِيلٌ^(٣)

(٤) - غزوة مؤتة:

كانت غزوة مؤتة - في السنة الثامنة للهجرة - أول معركة تقع بين جيش المسلمين وجيش الروم الذين وصلتهم الأخبار عن قوة ذلك الجيش المسلم، وكان سبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير (بصرى) من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني

(١) المراح: النشاط. والشاعبين: الذين ديدنهم الشغب وتمييج الشر.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٥.

وقتلته، فلمَّا بلغ الأمر رسول الله ﷺ اشتدَّ ذلك عليه، وجَهَّز جيشاً لمقاتلة ملوك الرُّوم^(١). وقد أمر ﷺ مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف من المسلمين، وندب النَّاس وقال لهم: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على النَّاس، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس، فإن قتل ابن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم^(٢). والتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش الرُّوم - الَّذي كان يقدر عدده بمائتي ألف مقاتل - في مكان يقال له مؤتة، فقاتل زيد بن حارثة ﷺ براية رسول الله ﷺ حتَّى قُتل في رماح القوم، ثمَّ أخذ الرّاية من بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فقاتل بها حتَّى إذا لحمه القتال، وأحاط به العدو من كل جانب، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها حتى لا تقع في يد العدو، ثمَّ أقبل يقاتل وهو يرددُّ أبياتاً تحمل معاني الشجاعة والبسالة والتّضحية في ما عند الله من النّعيم والرّضوان، ودخول الجنان، فهو يقاتل ابتغاء ما عند الله، والجنة عنده أسمى مطلوب، وفي ذلك يقول ﷺ:

يا حَبْدًا الجَنَّةُ واقتِرائُها طَيِّبَةٌ وبارداً شِراؤها
 والرُّومُ رُومٌ قد دَنَا عَدَاؤها كَافِرَةٌ بعيدَةٌ أنساؤها
 عَلَيَّ إِذْ لاقَيْتُها ضِرابُها^(٣)

ثمَّ قاتل حتَّى قُتل ﷺ. ثمَّ أخذ الرّاية من بعده عبد الله بن رواحة ﷺ فتقدّم يقاتل الرُّوم، فداخل نفسه شيء من روع لا يخلو منه الموقف، فجعل يحقِّز نفسه ويشدُّ من عزيمتها، وهو يرددُّ بعض الأبيات الشعريّة التي يقول فيها:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرَهَنَّه
 إنَّ أَجْلَبَ النَّاسِ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ^(٤) مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الجَنَّةَ
 قَدْ طالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْقَةٌ فِي شَنَّةٍ^(٥)
 ثمَّ تقدّم يقاتل، فأصيبت إصبغه، فارتجز قائلاً:

- (١) انظر: تأملات في سيرة الرسول ﷺ، د. محمّد السيّد الوكيل ص ٢٣٧.
 (٢) انظر: السيرة النبويّة ٣٧٣/٢.
 (٣) المصدر السابق ٣٧٨/٢.
 (٤) أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا. والرّنة: صوت فيه ترجيع يشبه البكاء.
 (٥) ديوان عبد الله بن رواحة - ودراسة في سيرته وشعره - د. وليد قصاب ص ١٥٣.

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعٌ دَمِيَّتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَّتِ
وَمَا تَمَنِّيَّتِ فَقَدْ لَقِيَّتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيَّتِ
وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيَّتِ^(١)

فقاتل حتى قُتِلَ ﷺ.

ومن القصص التي تروي صور البطولة والإقدام في حياة الشاعر عبد الله ابن رواحة ﷺ تلك التي رواها ابن هشام. إذ يروي أن رسول الله ﷺ حين جهَّز جيش المسلمين لملاقاة الروم، وكان ابن رواحة القائد الثالث للمعركة إن استشهد سابقاه، وهما زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فلمَّا وُدَّعَ عبد الله من رسول الله مع من وُدَّعَ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صباة بكم، ولكنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله - عزَّ وجلَّ - يذكر فيها النَّارَ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٢)، فليست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صَحِّبَكُمُ اللهُ، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين^(٣)، ثم أنشد ابن رواحة أبياتاً يعبر فيها عمَّا في نفسه وهو يسير في الجهاد راجياً مغفرة ربِّه ورضوانه، والفوز بالشَّهادة في سبيله، إذ قال:

لَكُنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْدِفُ الرَّبْدَا^(٤)
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَآنٍ مُجْهِزَةٍ بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا^(٥)
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَيَّ جَدَثِي أُرْشِدُهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشِدَا^(٦)

وكان المسلمون لَمَّا نزلوا (مَعَان) من أرض الشَّام هالهم ما رأوا من كثرة عدد الروم وما يملكونه من عتاد، وبدأوا يفكرون في ذلك، وهل يرسلون إلى الرسول ﷺ يخبرونه بذلك أم لا؟ فقام عبد الله بن رواحة ﷺ يشجِّعهم ويستحثُّهم على القتال، مبيِّناً لهم أنَّ النَّصر لا يتحقَّق عن كثرة العدد أو العُدَّة وإنما يتحقَّق بالصَّبْر والمصابرة والطَّاعة

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

(٢) سورة مريم، الآية ٧١.

(٣) انظر: السيرة النبوية ص ٣٧٣/٢ - ٣٧٤.

(٤) ذات فرغ: الفرغ مخرج الماء من الدلو. والرَّبْد: الرَّغوة.

(٥) الحرَّان: العطشان. مجهزة: مسرعة متممة، يقال: أجهز على الجريح إذا أماته.

(٦) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٧.

والإخلاص في إعلاء راية الإسلام، وهزيمة المشركين، فالجاهد في سبيل الله يقاتل
الأعداء وهو يرجو الظفر بإحدى الحسينين، إِمَّا النَّصْرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١).
فَتَشَجَّعَ النَّاسُ وَقَالُوا: قَدْ - وَاللَّهِ - صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ، وَأَنْشَدَ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ يَقُولُ:
جَلَبْنَا الْحَيْلَ مِنْ أَجَاٍ وَفَرَعٍ^(٢) تُعَرُّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ^(٣)
حَدُونَاهَا مِنَ الصَّوَّانِ سَبْتًا أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أُدِيمُ^(٤)
أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ فَأَعَقَبَ بَعْدَ فِتْرَتِهَا جُمُومُ^(٥)
فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَوِّمَاتُ^(٦) تَنْقَسُ فِي مَنَاحِرِهَا السُّمُومُ
فَلَا وَأَبِي مَآبٍ^(٧) لِنَأْتِيَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومُ
فَعَبَّأْنَا أَعْتَنَهَا فَجَاءَتْ عَوَابِسَ، وَالْعُبَابُ لَهَا بَرِيمُ^(٨)
بِذِي جَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ^(٩)
فَرَاضِيَةٌ^(١٠) الْمَعِيشَةَ طَلَّقَتْهَا أَسِنَّتْهَا، فَتَنْكِحُ أَوْ تَتِيمُ^(١١)

وفي ليلة السفر إلى مؤتة، وبينما كان الطريق طويلاً وشاقاً، كان عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه
يستغرق في الأمل بالشهادة والفوز برضوان الله - عز وجل - إذ ذهب يناجي ناقلته،
ويبشرها بتحريرها من الأسفار، فلا عودة إلى بلاد النخيل، لأنه عزم في قرارة نفسه

- (١) انظر: السيرة النبوية ٣٧٥/٢.
(٢) أجأ: أحد جبلي طيء، والآخر سلمى. والفرع: اسم موضع.
(٣) تعرُّ: تطعم شيئاً بعد شيء. والعكوم: جمع عكم، وهو الجنب.
(٤) الصَّوَّان: حجارة مُلس، واحدها صوانة. أزل: أملس. الأديم: الجلد.
(٥) الجموم: النشاط والراحة.
(٦) مسوِّمات: معلّات.
(٧) مآب: اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء.
(٨) البريم في الأصل: حيطان مختلفان أحمر وأبيض، وكل ما فيه لونان مختلفان فهو بريم.
(٩) اللحب: احتلاط الأصوات وكثرتها. والبَيْضُ: ما يوضع على الرأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.
(١٠) راضية: أي مرضية.
(١١) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٩ - ١٥٠.

على شدِّ الرِّحالِ إلى جوارِ ربِّه - جلَّ وعلا - حيث يقول:
إِذَا أَدَّيْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةً أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ^(١)
فَشَأْنُكَ أَنْعُمٌ، وَخَالِكِ دَمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِي الثَّوَاءِ
وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِخَاءِ
هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ^(٢) وَلَا نُحْلِلُ أَسَافِلَهُمَا رِوَاءِ^(٣)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تعلُّق الشاعر بالشَّهادة، والسَّير لأجلها علي راحلته، التي بلغت رحلته المأمولة، ولقي ما كان يرجوه من الاستشهاد في سبيل الله، والفوز برضوانه - عزَّ وجلَّ - وهي صورة مؤثرة تعكس روح التضحية والفداء التي قدَّمتها أولئك المجاهدون في تلك الغزوات.

(٥) - فتح مكة:

كانت الإرهاصات لهذا الفتح المجيد منذ وقت مبكر، ففي نهاية العام السادس للهجرة عزم النبي ﷺ أن يدخل مكة معتمراً، فاستنفر المؤمنين بالمدينة ليخرجوا معه، فلما شعر أهل مكة بقدمه أرسلت إليه قريش تستطلع الأمر أقتال أم عمرة، فلما علموا بحقيقة الموقف أخذتهم العزة بالإثم، وطلبوا عقد هدنة مع النبي ﷺ والمسلمين تقضي بأن يكف عنهم القتال لعشرة أعوام وأن يرجع إلى المدينة عامهم هذا، فإذا انصرم جاء ومن معه من المسلمين معتمرين في العام القابل، وبعد عودته ﷺ إلى المدينة جرت أحداث كثيرة نقض المشركون خلالها الهدنة وأغاروا على (خزاعة) الداخلة في عهد رسول الله ﷺ، فجهَّز - عليه السلام - الجيش المؤمن وقاده إلى مكة، وحمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه اللواء، وفتحت مكة ودخلها رسول الله ﷺ ومن معه وكان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين^(٤).

وقد واكب الشُّعر ذلك الفتح، وأشاد الشُّعراء بما تحقَّق للمسلمين في هذا الفتح من عزٍّ ومنعة ونصر للإسلام، حيث أظهرت القصائد الشُّعرية قدرة جيش المسلمين على الفتح،

(١) أدَّيتني: أوصلتني. والحيساء: جمع حسي، وهو ماء يغور في الرَّمْل.
(٢) البعل: النَّحْلُ الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السَّقْيِ، ويقال: استبعل النَّحْلُ: أي: شرب بعروقه.
(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥١.
(٤) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ١٢١-١٢٢.

وتمكن الله تعالى لهم. ومن ذلك ما يظهر في قول بجير بن زهير^(١) حين يصف هذا الفتح، ويشير إلى الطريقة التي التقى فيها الجمعان، جيش المسلمين بعزيمته وصبره وتوكله على الله تعالى، وجيش الكفر بتخاذله وانكساره، فكانت الصيحات والطعان وقفزات خيل المؤمنين معبرة عن الفرح بنصر الله، فقد أنهال المؤمنون على خصومهم ضرباً بالشُيوف، وطعناً بالرماح، حتى تحقق لهم ما كانوا يأملون فيه من الهجرة، وباء الكفار بالهزيمة والخسران، وفي ذلك يقول بجير:

ضَرَبْنَاَهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ النَّـ يِّ الْحَيْرِ بِالْبَيْضِ الْخَفَافِ
 صَبَحْنَاَهُمْ بِسَبْعِ^(٢) مِنْ سُلَيْمِ وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافٍ
 نَطَأَ أَكْتَفَاهُمْ ضَرْباً وَطَعْنًا وَرَشَقًا بِالْمَرْشَشَةِ اللَّطَافِ^(٣)
 تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا كَمَا انصَاعَ الْفُوقِ مِنَ الرَّصَافِ^(٤)
 فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ بَجُولٌ فِيهِمْ بِأَرْمَاحٍ مُقَوَّمَةِ الثَّقَافِ
 فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا وَأَبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ
 وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَّا مَوَائِقِنَا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِ
 وَقَدْ سَعَوْا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانصِرَافِ

ويتوقف العباس بن مرداس السلمي^(٥) عند فتح مكة بعد أن اشترك مع قومه من بني سليم في ذلك الفتح، حيث يبين في إحدى قصائده القوة العددية لقومه الذين شاركوا تحت إمرة النبي الكريم ﷺ موضحاً ما كانوا عليه من الإقدام، والبسالة، والتضحية من أجل تحقيق النصر، حيث يقول:

(١) هو: بجير بن زهير بن أبي سلمى المزني، أسلم قبل السنة السابعة للهجرة، ودعا أحاه كعباً للإسلام، وشهد مع المسلمين بعض الغزوات ومنها فتح مكة. (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/٢٤١).
 (٢) بسبع: أي بسبع مائة. وبنو عثمان: هم مزيعة.
 (٣) نطأ: أراد نطأ، فحفف الهمزة. والرشق: الرمي السريع. والمريشة: يعني السهم ذوات الريش.
 (٤) الحفيف: الصوت. وانصاع: انشقق. والفواق هنا: الفوق، وهو طرف السهم الذي يلي الوتر. والرصاف: جمع رصفة، وهي عصبة تلوى فوق السهم.
 (٥) هو: العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمي، يكنى أبا الهيثم، وهو من شعراء البادية، أسلم قبيل فتح مكة، وشارك مع قومه في الجهاد ونصرة الإسلام، توفي سنة ١٨ هـ. (انظر: الإصابة لابن حجر ١/٣٤٢).

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ^(١) مُسَوِّمٌ
 نَصَرُوا الرَّسُولَ، وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ وَشِعَارُهُمْ^(٢) يَوْمَ اللَّقَاءِ مُقَدَّمٌ
 فِي مَنْزِلٍ تَبَيَّنَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْحَنْتَمُ^(٣)
 جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا حَتَّى اسْتَفَادَ لَهَا الْحِجَازُ الْأَذْهَمُ
 اللَّهُ مَكَّنَهُ لَهُ وَأَدَلَّهُ حُكْمُ الشُّيُوفِ لَنَا وَجَدُّ مِرْزَمٍ^(٤)
 عَوْدُ الرَّيَّاسَةِ شَامِخٍ^(٥) عَزِينُهُ مُتَطَلِّعٌ ثَغَرَ الْمَكَارِمِ خِضْرُمٍ^(٦)

وينطلق حسان بن ثابت رضي الله عنه في همزته من جانب الدفاع عن الدعوة الإسلامية وصاحبها صلى الله عليه وسلم الذي ما فتى المشركون يكيلون له السباب، والتهم، ويرمون به بأشع الصفات في وقت هو يسعى إلى هدايتهم ودخولهم الدين الحق لينعموا بسماحته وعدله، ولكن أئمة الكفر ورؤوس الفتنة ظلوا يكيدون له، ولذا هجاهم حسان ر بما قدمت أيديهم في تعذيب المؤمنين، والتطاول على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، حيث يقول:

أَلَا أَيْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ^(٧) عَيِّي فَأَنْتَ جُجُوفٌ نَجِبٌ هَوَاءُ
 هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجِزَاءُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْا خَيْرُكُمْا الْفِئَاءُ
 هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينُ اللَّهِ، شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
 فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
 فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

(١) البطاح: جمع بطحاء، وهي الأرض السهلة المتسعة.

(٢) شعارهم: علامتهم في الحرب.

(٣) ضنك: ضيق. والهام: الرؤوس. والحنتم: الحنظل.

(٤) مزجم: كثير المزاومة، يريد أن جددهم غالب.

(٥) العود (هنا): الرجل المسنن. وشامخ: مرتفع، والخضرم: الجواد الكثير العطاء.

(٦) السيرة النبوية ٢/٤٢٦ - ٤٢٧.

(٧) هو أبو سفيان الحارث بن عبد المطلب.

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي مَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ^(١)
وكما يظهر في البيت الأخير فإنَّ حَسَّانَ ﷺ يفخر بفصاحته وبلاغته وجودة شعره،
فإذا كان الأعداء يظنون أنهم ينالون من المسلمين بشعرهم فإنَّ هذا السلاح هو
أَمْضَى وَأَقْوَى لدى المسلمين؛ لأنهم يدعون إلى الحق، ويدودون عن عقيدتهم بسناتهم
ولسانهم.

ويصف العباس بن مرداس ﷺ طريقة الجيش الفاتح في السير إلى الجهاد، وكيف أنهم
يسيروا تحت إمرة النبي الكريم ﷺ ويطيعونه فيما أمر، ويحْتَنِبُونَ ما نَهَى عنه، الأمر الذي
حَقَّقَ لَهُمُ الفلاح، وأخضع الأَقْوَامَ للدخول في دين الله، وفي ذلك يقول:

فَمَنْ مَبْلَغُ الأَقْوَامِ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ الإِلهِ رَاشِدٌ حَيْثُ يَمَّمَا
دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَ اللهَ وَحَدَهَ فَأَصْبَحَ قَدْ وَفَّى إِلَيْهِ وَأَنْعَمَا
سَرِينَا وَوَعَدْنَا قَدِيدًا مُحَمَّدًا يَوْمُ بِنَا أَمْرًا مِنْ اللهِ مُحْكَمًا
تَمَّازُوا بِنَا فِي الفَجْرِ حَتَّى تَبَيَّنُوا مَعَ الفجرِ فتياناً وَغاباً مُقْوَمًا
فإنَّ سَرَاةَ الحَيِّ إِنْ كُنْتَ سائِلاً سُلِّمَ وَفِيهِمْ مِنْهُمْ مَنْ تَسَلَّمَ
وَجُنْدٌ مِنَ الأَنْصَارِ لا يَخْدُلُونَهُ أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَهُ مَا تَكَلَّمَا^(٢)

وبعد الفتح الإسلامي وما أدخله من فرح في النفوس توجَّه المسلمون بقيادة الرسول ﷺ
إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الدخول في الإسلام، وبيان موقفهم منه، وكان مع الركب
المتَّجه إلى الطائف كعب بن مالك ﷺ الذي نظم قصيدته في وصف المعارك التي
خاضها جيش المؤمنين، وقد تكَلَّمَت بالنصر المؤزَّر، وما تبع ذلك من دخول الناس في
دين الله أفواجاً حتى وصل ذلك الجيش إلى الطائف^(٣)، ليكمل رسالته في نشر الدعوة
الإسلامية، حيث يقول كعب في مطلع قصيدته:

قَضَيْنَا مِنْ هَامَةٍ كُلِّ رَبِّ وَخَيْرٍ، ثُمَّ أَجْمَمْنَا^(٤) السُّيُوفَا

(١) ديوان حَسَّان بن ثابت ص ٧٥-٧٦.

(٢) السيرة النبوية ٤/١١٠-١١١.

(٣) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ٢٣٩.

(٤) أَجْمَمْنَا: أَرْحَنَّا.

فَأَخْبَرَهَا، وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِئُهُنَّ: دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ^(١) إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِّنَّا أَلُوفًا
وَنَتْنِغِ الْعُرُوشَ بِبَطْنِ (وَجِّ)^(٢) وَتُصْبِحُ دُورَكُمْ مِّنَّا خُلُوفًا
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ يُعَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفًا
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرَهَفَاتٍ يُزِنُ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا
كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا قُيُودُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَثِيفًا^(٣)
تَحَالُ جَدِيَّةُ الْأَبْطَالِ فِيهَا عَدَاةَ الرَّحْفِ جَادِيًا^(٤) مَدُوفًا^(٥)

وبعد هذه المقدمة التي أبان فيها كعب رضي الله عنه عما صنعه المسلمون مع أعداء الدعوة الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، انطلق بعد ذلك إلى إنذار المشركين بما ينتظرهم من سوء العاقبة إن لم يتبعوا الطريق الحق، وإشهادهم بأنهم قادمون، فمن أثر السلام فليسلم بما جاء به المصطفى ﷺ ليعيش عيشة راضية، ومن لم يسلم، أو تحدّثه نفسه بالموادعة، فليتحمل وزره ووزر من أتبعه، أو استجاب لنصحه^(١)، حيث ينطلق كعب في هذا المعنى فيقول:

أَجِدَّهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحٌ مِّنَ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفًا^(٧)
يُجَبِّرُهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنُّجُبِ الطُّرُوفَا^(٨)
وَأَنَّا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِرَحْفٍ يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفًا

(١) الحاضن: المرأة التي تحضن ولدها.

(٢) وَجِّ: من أسماء الطائف. (انظر: معجم البلدان ٥/٣٦١).

(٣) العقائق: جمع عقيقة، وهي شعاع البرق. وكتيف: جمع كثيفة، وهي الصفائح الحديد التي تستعمل في صنع الأبواب.

(٤) الجديّة: الطريقة من الدّم. والجادي: الرّعفران. ومدوف: مخلوط بغيره.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٦) انظر: التأثير النفسي للإسلام في الشعر ص ٢٤٠.

(٧) أجدهم: بكسر الجيم وفتحها بمعنى: أجد منك هذا، ونصبت على طرح الياء. وعريفًا: عارفاً.

(٨) عتاق: جمع عتيق. والنجب: جمع نجيب. والطرُوف: جمع طريف (بكسر الطاء)، وكلها صفات للخيل بمعنى: الكريمة الأصل.

رَيْسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صَلْبًا نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفًا
رَشِيدَ الْأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وَعِلْمٍ وَحَلِيمٍ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفًا
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبَّنَا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفًا
فَإِنْ تُلُفُوا إِلَيْنَا السَّلْمَ نَقْبَلُ وَنَجْعَلُكُمْ لَنَا عَضُدًا وَرِيفًا^(١)
وَإِنْ تَأْبُوا مُجَاهِدُكُمْ وَنَضِيرُ وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفًا
بُجَالِدِ مَا بَقِينَا أَوْ تُنَبِّئُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا^(٢)
بُجَاهِدْ لَا تُبَالِي مَنْ لَقِينَا أَأَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمْ الطَّرِيفَا
لَأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا^(٣)

فقد أبان كعب ﷺ في هذه الآيات عن السبب في المضي إلى الجهاد وتحقيق الانتصارات وهو الدعوة إلى الإسلام والدخول فيه، وإخراج الناس من دياجير الشرك والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان، لذا كانت هذه الدعوة هي السمة البارزة في شعر الغزوات، حيث أبان الشعراء في كثير من قصائدهم عن حرصهم على دخول الناس في هذه الدعوة المباركة، والاستنارة بنور الإسلام، كي يتفوقوا ظلاله، وينعموا بسماحته وعدله.

(١) الرِّيفُ: الموضع المخصب على الماء. يريد تتخذكم أعواناً على الحرب، ونستمد من ريفكم العيش.
(٢) بُجَالِدٌ: محارب بالسُّيُوف. ومضيفاً: ملجئاً.
(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

الفصل الثاني

القيم الفنية في شعر الغزوات

أولاً: أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر

من الجوانب البارزة في شعر الغزوات ما اتسم به ذلك الشعر من الميل إلى الألفاظ والمعاني القرآنية، وذلك من خلال الاقتباس من الذكر الحكيم، فقد تأثر الشعراء من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - بالقرآن الكريم وبيدع أسلوبه وجمال معانيه، فكان أسلوبه المعجز محلّ اهتمامهم وإجلالهم، ولذا فقد عمدوا إلى الاستنارة بنوره، والإفادة من معانيه السامية في أشعارهم، وهو ما ظهر جلياً في اقتباسات حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - وهو ما سيّضح من خلال الوقوف على تلك الأشعار.

الاقتباس من القرآن الكريم:

توقّف شعراء الغزوات عند بعض الآيات القرآنية، وتمثّلوا معانيها، وأدخلوها في أشعارهم التي تتحدّث عن نصره الإسلام، والدّفاع عن العقيدة الإسلامية، والتصدّي للمشركين الذين ما فتئوا ينالون من المسلمين، ويتعرّضون لهم بالهجاء. وكان من أولئك المتأثرين بالقرآن الكريم حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فقد عبّر شعر الغزوات عنده عن معاني إيمانية عميقة، تستلهم رؤيتها الحقّة من القرآن الكريم، ومن ذلك ما يظهر في قوله:

وَقُلْتُمْ لَنْ نُرَى، وَاللَّهُ يُبْصِرُكُمْ
وَفِيكُمْ مُحْكَمُ الْآيَاتِ وَالْقِيلِ

مَحَمَّدٌ وَالْعَزِيزُ اللَّهُ يُخَيِّرُهُ
بِمَا تُكِنُّ سَرِيْرَاتُ الْأَقَاوِيلِ^(١)

فالبيت الأول مقتبس من قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢). والبيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٣).

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٣٠٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

(٣) سورة القصص، الآية ٦٩.

وفي رائية كعب بن مالك ﷺ التي ردَّ بها على قصيدة ضرار بن الخطَّاب يقول في مطلعها:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ اللَّهُ قَاهِرٌ^(١)

فالبيت فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٢). ويقول كعب ﷺ في بعض معانيه التي تستلهم المعاني القرآنية:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهَ جَهْرَةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ الْمُنِيفِ الْمُعْظَمِ

فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى الْمَوْضِعِ الْأَعْلَى الرَّفِيعِ الْمَسُومِ

وَإِنْ تَكُ نَمْلُ الْبَرِّ بِالْوَهْمِ كَلَّمْتَ سُلَيْمَانَ ذَا الْمَلِكِ الَّذِي لَيْسَ بِالْعَمِيِّ^(٣)

فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِعَارُ الْحَصَى فِي كَفِّهِ بِالْتَّرْمِ^(٤)

فالبيت الأول مقتبس من قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٥).

أما البيت الثاني فيشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطَمَنَّ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٦).

وحين يصف كعب ﷺ عدَّة الجيش المسلم فإنه يجعل في مقدمتها التَّقوى، فهي خير ما يتمسك به المؤمن ليحظى بالنَّصر والتأييد من خالقه - عزَّ وجلَّ - وفي ذلك يقول:

تِلْكَكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِيَأْسَنَا يَوْمَ الْهِجَابِ وَكُلِّ سَاعَةٍ مَصْدَقٍ^(٧)

ففي هذا البيت إشارة إلى قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿يَبْنَئُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورَى سَوْءَ تِكُمْ وَرِدِشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٨)

(١) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٨.

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٠.

(٥) سورة النساء، الآية ١٦٤.

(٦) سورة النمل، الآية ١٨.

(٧) ديوان كعب بن مالك ص ١٤٠.

(٨) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

وفي غزوة مؤتة تظهر شجاعة جعفر بن أبي طالب ﷺ وبسالته فهو يطلب الجنة وما فيها من نعيم ورضوان، فيقول:

يا حَبْدًا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدًا شَرَابُهَا^(١)

ويصف كعب بن مالك ﷺ دعوة النبي ﷺ لقريش للدخول في الإسلام وترك المعتقدات الباطلة التي يعتقدونها فكان جوابهم الإساءة لشخص النبي ﷺ، حيث يقول كعب:

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَوَلَّوْا وَقَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرٌ^(٢)

ففي هذا المعنى إشارة إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾^(٣).

وفي غزوة مؤتة وقف عبد الله بن رواحة ﷺ ذلك الموقف البطولي، وذلك حين خاطب نفسه راجياً منها أن تطلب الشهادة في سبيل الله، وترجو ما عند الله - عز وجل - حيث يقول:

قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتُ مُطْمَئِنَّةً جَعْفَرُ مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ!^(٤)
أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَا لَتُكْرِهَنَّهُ

حيث يشير في الشطر الثاني من البيت الثاني إلى المعنى الوارد في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾^(٥) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾^(٥).

وفي شعر حسّان بن ثابت ﷺ تظهر رباطة الجاهد المسلم المتوكل على الله، الذي لا يخشى كثرة عدد الأعداء ولا عدوّتهم، إذ يقول:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا وَإِنْ كَثُرُوا وَأُجْمَعَتِ الرُّحُوفُ
إِذَا مَا أَلْبُوا جَمْعًا عَلَيْنَا كَفَانَا حَدَّهِمْ رَبُّ رُؤُوفُ
لَقَيْنَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفُ^(٦)

ففي هذه الأبيات يظهر أثر المعاني القرآنية، حيث يشير البيت الأول إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

(١) السيرة النبوية ٢/٣٧٨.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٣٩.

(٣) سورة ص، الآية ٤.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٣.

(٥) سورة الواقعة، الآية ٨٨ - ٨٩.

(٦) ديوان حسّان ص ٣٥٢.

مَفْعُولًا ﴿١﴾.

وفي البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ويشير عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى جهاد المسلمين، فيقول:

بُحَالِدِ النَّاسَ عَنْ عِرْضِ فَنَاسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ، وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورُ (٣)

لفظة (سورة) في الشطر الثاني مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٤).

ويصف كعب بن مالك رضي الله عنه خيول المسلمين التي أُعدت لحرب المشركين في موقعة الخندق، وما اتَّصفت به من الصفات، فيقول:

وُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مُقْلَصٍ وَرِدِّ، وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أُنْبَلَقِ (٥)

أَمَرَ الْإِلَهَ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُوقِفِ (٦)

فهذا المعنى فيه إشارة إلى قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٧).

وعلى هذا النحو فقد ظهر أثر القرآن الكريم في أساليب الشعراء، الذين تحدَّثوا عن الغزوات، وناقحوا عن عقيدتهم، وتصدَّوا للمشركين في كثير من المواقع، وقد أعطى ذلك التأثير شعرهم قوَّةً في التعبير، وأسلوباً سهلاً أزاح عن طريقهم خشونة الألفاظ الجاهليَّة التي كانت سمة بارزة قبل ظهور الإسلام.

ثانياً: اللغة الشعريَّة:

اللغة عنصر رئيس من عناصر الإبداع الشعري، وهي الوسيلة التي تفصح عن مدلول الشاعر ومراده، وذلك من خلال ما يبثه في شعره من مشاعر وشجون.

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٩-١٠.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٨٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٢.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ١٤٠.

(٦) المصدر السابق ص ٢٤٤.

(٧) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

والشعر الجيد هو الذي يمتاز بتجانس الألفاظ والمعاني، فترق تلك الألفاظ في المواضع التي تتطلب الرقة، وتجزل وتشتد في المواضع التي تتطلب الشدة والفخامة، وهو ما دعا إليه القاضي الجرجاني في قوله: ((أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني))^(١). والمتأمل في ألفاظ شعر الغزوات يجد أنها اتسمت في جانب كبير منها بالجزالة، وقد حدد النقاد ملامح اللفظ الجزل في الكلام بأنه هو الذي ((يكون متيناً على عدوبته في الفم، ولذاذته في السمع))^(٢)، فلا تشوبه وحشية أو وعورة، كما بينوا المواضع التي يستعمل فيها اللفظ الجزل، ومنها ما ((يكون في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشبه ذلك))^(٣).

ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك رضي الله عنه في موقعة الخندق، التي يقول فيها:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعِّعُ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعَمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمِحْرَقِ
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سَيْوْفُهَا بَيْنَ الْمَدَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ
نَصِلُ السُّيُوفِ إِذَا قُضِرْنَ بِحَطُونَا قُدُماً، وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ
فَتَرَى الْجَمَاجِمَ ضَاحِيًا هَامَاتُهَا بَلَاءَ الْأَكْفِ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ
تَلْقَى الْعَدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلْمُومَةٍ تَنْفِي الْجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ الْمِشْرِقِ
وُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مُقْلَصٍ وَرِدِّ وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ
تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَّاتَهُمْ عِنْدَ الْهِيَاجِ أُسُودٌ طَلٌّ مُلْثَقِ^(٤)

حيث يصف كعب رضي الله عنه حماسة جيش المسلمين، واستعدادهم للقاء المتحزبين من المشركين في يوم الخندق، وقدرتهم على إلحاق الهزيمة بهم إذا قدموا لحرب المسلمين، مبيناً ما امتاز به ذلك الجيش من التعود على حوض المعارك ومنازلة الأعداء، وإعمال السيف فيهم، حيث يظهر دور الفرسان المسلمين على خيولهم المضرة المعدة للقتال فكأنهم أسود يجمون عرينهم، ويدافعون عنه بكل بسالة، وقد اعتمد الشاعر في وصف تلك المشاهد الحماسية على

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٤.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/١٨٥.

(٣) المصدر السابق ١/١٨٥.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

الألفاظ الجزلة، ومن تلك الكلمات (ضرب، يجمع، المحرق، مأسدة، سيوفها، الجماجم، هاماتها، العدو، بفخمة، ملمومة، مقلص، ورد، محجول، أبلق، بفرسان، كمامهم، الهياج، أسود، ملثق) فهي ألفاظ تتسم بالقوة، وشدّة الجرس، وتوحي بجوّ المعركة، وما يكتنفه من اصطدام الجيوش، وصليل السيوف، وشدّة إعمالها في الأعداء.
 ويستخدم العباس بن مرداس رضي الله عنه الألفاظ الجزلة في وصف فتح مكة، وما تحقّق فيه للمسلمين من عزٍّ ومنعة، يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبِطَاحُ مُسَوِّمٌ
 فِي مَنْزِلٍ ثَبَّتَ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْحَنْتَمُ
 جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَارُ الْأَدْهَمُ^(١)

فالشاعر هنا يصوّر ما دار يوم فتح مكة من حشد الجيوش المتأهبة للفتح، ومنهم قومه من بني سليم الذين شاركوا بفرسانهم في ذلك الفتح، وأظهروا ثباتهم ورباطة جأشهم في تلك المناسبة العظيمة، وقد ألبس الشاعر تلك المعاني ألفاظاً تناسبها في القوة والشدّة، وتوحي بصور البسالة والإقدام، حيث اعتمد في ذلك على ألفاظ اتّسمت بالمتانة والجزالة، ومن تلك الألفاظ ((تسيل، البطاح، مسوّم، ضنك، الهام، الحنتم، جرّت، سنابكها، استقاد، الأدهم) فهذه الألفاظ ترسم صورةً تموج بالحركة والقوة، لتجسّد ما شهدته ذلك الفتح من قوّة وشجاعة من قبل جيش المسلمين.

ومن الجوانب البارزة في شعر الجهاد شيوع الألفاظ الإسلامية التي جاءت مع الدّين الجديد، حيث تأثّر بها الشعراء، وأدخلوها في معجمهم الشعري، فجاءت قصائدهم الشعريّة تحفل بتلك الألفاظ، التي هي مظهر من مظاهر الشعر في عصر صدر الإسلام^(٢). ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قول حسّان بن ثابت رضي الله عنه في موقعة الخندق:

وَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ وَأَتَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ
 مِنْ بَعْدِ مَا فَتَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهُمْ تَنْزِيلُ نَصٍّ مَلِيكِنَا الْوَهَّابِ
 وَأَقْرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصَحَابِهِ وَأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَابِ

(١) السيرة النبويّة ٤٢٦/٢.

(٢) انظر: الشعر الإسلامي في صدر الإسلام د. عبد الله الحامد ص ١٠٥، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام لأيهم القيسي ص ٣١٧، الأدب في عصر النبوة والرّاشدين د. صلاح الدّين الهادي ص ٢٥٩.

مُسْتَشْعِرٍ لِلْكَفْرِ دُونَ ثِيَابِهِ وَالْكَفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الْأَثْوَابِ^(١)
فالشاعر يشير إلى ما آلت إليه موقعة الخندق من تفرق جموع المشركين، وتشتت حشودهم، ورجوعهم خائبين، وقد كفى الله المؤمنين القتال، وأتاهم الأجر على ما بذلوا في مواجهة الكفار، حيث كانت العزة للمسلمين، والذلة والخزي للكافرين.. وقد جاء النص يزخر بالألفاظ الإسلامية، ومن ذلك (الإله، المؤمنين، أتاهم، الأجر، ثواب، تنزيل، نص، مليكنا، الوهاب، صحابه، مكذب، مرتاب، الكفر، طاهر) فهذه الألفاظ أبانت عن المعنى العام الذي قصد إليه الشاعر، وأكسبته دلالة جديدة، تدل على تأثر حسّان رضي الله عنه بالمعاني الإسلامية، والقيم الدينية التي أتى بها الدين الحنيف. ويشير كعب بن مالك رضي الله عنه إلى أن الدعوة إلى الإسلام، والحرص على دخول الناس فيه هو السبب في مسيرة الجهاد، وانطلاق المسلمين لإعلاء راية الحق، حتى ينتشر الإسلام في شتى الأصقاع، يقول:

بُجَاهِدْ مَا بَقِينَا أَوْ تُنَبِّئُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيْفًا
بُجَاهِدْ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا أَهْلَكْنَا تَلَادَ أَمْ الطَّرِيفَا
لَأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى يُفْوَمَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا^(٢)

فقد اعتمد الشاعر في أبياته على القاموس الإسلامي، واختار منه ما يعبر عن مضمونه بما يناسبه من الألفاظ الإسلامية، ومنها (الإسلام، نجاهد، أمر الله، الدين، معتدلاً، حنيفاً).

ومن سمات التراكيب في شعر الجهاد غلبة البساطة والعموية على هذا الشعر، فهو شعر مطبوع، يتعد عن التعقيد والالتواء، وذلك يعود إلى أثر الثقافة الإسلامية النابغة من تأثير القرآن الكريم والحديث النبوي، وصفاء اللغة التي ورد بها، فهي لغة منتقاة، تبتعد عن الخشونة، كل ذلك أدى إلى وضوح التراكيب في شعر الجهاد وحسن تأليفها، وبعدها عن التنافر والتعقيد، ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك رضي الله عنه التي نظمها يوم الخندق، يقول:

وَسَائِلَةٌ تُسَائِلُ مَا لَقِينَا وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَ

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ١٢٠.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

صَبْرَنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عِدْلًا عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَ
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو الْبِرِّيَّةَ أَجْمَعِينَ
نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالْعِدَاوَةِ مُرْصِدِينَ^(١)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ الْمُسْرِعِينَ
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهَ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَ^(٢)

حيث يصف كعب بن مالك ما أصاب المسلمين في موقعة الخندق التي تحزَّب فيها المشركون واليهود والقبائل الموالية لهم، وساروا لحرب المسلمين، الذين واجهوا أولئك المتحرِّزين بالصَّبر، واليقين، والتَّوكل على الله - عزَّ وجلَّ - فكان النَّصر حليفهم، وكانت الهزيمة والذَّلة من نصيب تلك الأحزاب التي تحالفت وتآمرت من أجل العدوان على المسلمين.. وقد عبَّر الشَّاعر عن تلك المعاني بألفاظ سهلة واضحة تتلاءم مع طبيعة الموضوع، وصاغها في عبارات متألَّفة متجانسة، ومن تلك العبارات: (ولو شهدت رأينا صابرينا، على ما نابنا متوكِّلين، وكان لنا النبي وزير صدق، نقاتل معشراً ظلموا وعقوا، نعاجلهم إذا نهضوا إلينا) حيث يظهر ترابط تلك العبارات وتماسكها، وقدرتها على التَّعبير عمَّا يرمي إليه الشَّاعر بوضوح. وهذه السَّمة تلحظ بوضوح في أغلب الشَّعر الذي صاغه الشُّعراء حول الغزوات^(٣)، حيث تأنَّقوا في صوغ عباراتهم، والعناية بأساليبهم، وبخاصَّة؛ لأنَّ هذا الشَّعر يردُّ على المشركين، وينقض قصادهم التي تعرَّضوا فيها للمسلمين^(٤).

ثالثاً: الصُّورة الفنِّيَّة:

تعدُّ الصُّورة من أهمِّ العناصر الفاعلة في القصيدة الشَّعريَّة، لكونها من الوسائل الفنِّيَّة التي يعتمد عليها الشُّعراء في التَّعبير عن أفكارهم، لتقريب المعاني وزيادة توضيحها للتأثير في السَّامع. والصُّورة بناءً على ذلك ((ليست زينةً شكليَّةً، أو حليةً مصطنعةً،

(١) المرصِد: المجدُّ للأمر عُدتَه.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٣) راجع مثلاً: ديوان حسان بن ثابت ص ٧١-٧٥، ٩٣، ٩٦، ١١٩، ١٢٠، ديوان عبدالله بن رواحة ص ١٣٨، ١٤٧، ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤-٢٣٧، ٢٥٥-٢٥٨.

(٤) راجع مثلاً: السِّيرة النَّبويَّة ٢/٢٥٤ - ٢٥٥، ٢٥٧ - ٢٥٨، ديوان عبد الله بن الزُّبَيْر ص ٢٩-٣٠، ٣٧ - ٣٩، ٤٠ - ٤٣.

وإنما أداة أساسية لتوصيل الخبرة والتعبير عن الرؤية^(١).
وتظهر الصورة بشكل أوضح من خلال ((الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية))^(٢) معتمداً في ذلك على وسائل التعبير المختلفة في رسم مشاهداته ونظرته الخاصة للأشياء.

وتأتي الفنون البيانية في مقدمة الصور التي استعان بها الشعراء في شعر الغزوات، وهي صور عمادها التشبيهات، والاستعارات، حيث لجأ إليها الشعراء في قصائدهم لما تمثله من قيمة فنية عالية.

ويعدُّ التشبيه من أكثر الفنون البيانية جرياناً في الشعر، فهو من أقدم صور البيان وأقربها إلى الفهم والأذهان، وبه يزداد المعنى وضوحاً ويكتسب تأكيداً^(٣).

ومن الصور التشبيهية ما يظهر في قول كعب بن مالك ﷺ في موقعة بدر، حيث صور مسيرة جيش المسلمين لملاقاة المشركين، وكأهم أسود تزار تنتظر فريستها، يقول:

فَسَارُوا وَسِرْنَا فَالتَقِينَا كَأَنَّا
أَسُودٌ لِقَاءٍ لَا يُرَجَى كَلِيمُهَا^(٤)

كما صور حسان بن ثابت ﷺ استعداد المسلمين للقتال، فقال:

فَتِيَانُ صِدْقٍ كَاللُّيُوثِ مَسَاعِرٍ
مَنْ يَلْقُهُمْ يَوْمَ الْهِيَاجِ^(٥) يُعَرِّدُ^(٦)

حيث يصف فرسان المسلمين الذين يقفون في مقدمة الصفوف للدفاع عن عقيدتهم، والتضحية من أجلها، ولذا أطلق عليهم فتیان صدق، وشبههم بالأسود الضارية التي تدافع عن عربنها بكل حماسة وعزيمة، وهم مع ذلك يسعون نار الحرب، التي لا يقوى الأعداء على خوضها، بل يفرون منها لجنهم وخورهم.

كما شبه شعراء الغزوات أعداءهم من المشركين بالنعام، الذي يضرب به المثل في الجبن، ومما جاء من أمثال العرب قولهم: (أندُّ من نعامة)^(٧) أي أنقر. حيث شبه كعب بن مالك ﷺ فرار المشركين يوم بدر بالنعام، فقال:

(١) جماليات القصيدة المعاصرة د. طه وادي ص ٢١٢.

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د. عبد القادر القط ص ٣٩١.

(٣) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٢٨٧/١، تحقيق: د. محمد فرقان.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٦٦.

(٥) يوم الهياج: أي يوم الوقائع والمعارك الشديدة، يعرِّد: يفتر.

(٦) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٤.

(٧) مجمع الأمثال للميداني ٤١٣/٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

فَأَتَاكَ فَلِ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ وَالْحَيْلُ تَثْفُفُهُمْ نَعَامٌ شُرْدٌ^(١)

أمَّا حَسَّانٌ ﷺ فقد رأى تصويراً آخر لفرار المشركين في غزوة بدر، وذلك حين شبَّههم بالإبل التي يسير بعضها في إثر بعض، مبيِّناً هروبهم من أرض المعركة، ورجوعهم على أعقابهم بعد أن حمى الوطيس، وأحاط بهم المسلمون من كلِّ جانب، حيث يقول في رده على قصيدة ابن الزبير:

إِذْ تُؤَلُّونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ هَرَبًا فِي الشَّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلِ^(٢)

أمَّا فرسان المسلمين الذين يواجهون الأعداء بكلِّ بسالة فقد شبَّههم حَسَّانٌ ﷺ بالصُّقور، في قوَّة بأسهم، ونفاذ بصرهم، وتمكُّنهم من خصومهم، يقول:
لَهُ حَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَادَى^(٣) بِفُرْسَانٍ عَلَيْهَا كَالصُّقُورِ^(٤)

ويشير حَسَّانٌ بن ثابت ﷺ إلى مكانة حُبَيْب بن عدي^(٥) ﷺ وجهاده من أجل نصرته الإسلام، فيقول:

صَفْرًا تَوَسَّطَ فِي الْأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ حُلُو السَّجِيَّةِ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشِبِ^(٦)

وفي معركة بدر لم يجد كعب بن مالك ﷺ بداً من ذكر مسيرة ذلك الجيش المسلم، يقدمه الرُّسول الكريم ﷺ حيث يحثُّهم على الجهاد، ويقوِّي عزائمهم، وهم يصغون إليه، ويطيعونه في كلِّ ما يقول، وقد لجأ كعب ﷺ إلى الصُّورة التَّشْبِيهِيَّة في هذا المقام، وذلك عندما شبَّه النَّبِيَّ ﷺ بالبدْر، الَّذِي يَضِيءُ لِلْآخِرِينَ فَيُنِيرُ لَهُمْ طَرِيقَهُمْ، وَيُدْهِمُّ إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ وَالْفَلَاحِ، يقول:
تَمْضِي وَيَذْمُرْنَا^(٧) فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبِعْ عَلَى الْكَذِبِ^(٨)

وفي صورة تشبیهية أخرى يشبَّهه ﷺ بالشَّهاب، وهو يتوسَّط المسلمين، يقول كعب:

(١) ديوان كعب بن مالك ص ١٩١.

(٢) ديوان حَسَّان بن ثابت ص ١٨١.

(٣) الخيلُ المَجَنَّبَةُ: المقودَةُ. وتعادى: تسرع.

(٤) ديوان حَسَّان بن ثابت ص ٢٤٥.

(٥) هو حُبَيْب بن عديّ بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري، شهد بدرًا، وقَتَلَ الحارث بن عامر بن نوفل، واستشهد في عهد النَّبِيِّ ﷺ. (انظر: الإصابة لابن حجر ١٨٥/٣).

(٦) ديوان حَسَّان بن ثابت ص ٢٢٥.

(٧) يذمرنا: يَحْضُنَّا ويدفعنا.

(٨) ديوان كعب بن مالك ص ١٧٥.

فِينَا الرَّسُولُ شُهَابٌ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ نَوْزٌ مُضِيٌّ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ (١)
كما استعان الشعراء بالاستعارات الجميلة لإبراز معانيهم في حلّة قشبية، وإيرادها في شكل تشتاق إليه النفس، وتأنس به. ومن تلك الصور ما عبّر عنه حسّان بن ثابت ﷺ في يوم بدر، وذلك في وصف هزيمة حكيم بن حزام بن خويلد في ذلك اليوم، حيث قال:

بَجَى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ رَكُضُهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ

لَمَّا رَأَى بَدْرًا تَسِيلُ جِلَاهَهَا (٢) بِكَتَائِبِ مِلْأَوْسٍ أَوْ مِلْخَزْرَجِ (٣)

فقد جعل حسّان ﷺ في البيت الثاني جِلَاهُ بَدْرٍ تَسِيلُ رَجَالًا مِنْ كَثْرَةِ كِتَابِ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ عَلَى سَبِيلِ الاستعارة، وذلك بما تحمله من عمق في تصوير تلك الكتائب، التي قدمت لنصرة الإسلام ودحر الشرك.

وفي تصوير المعارك تظهر جلياً براعة الشعراء في التقاط صورهم التي رسموا من خلالها مشاهد حيّة لما دار في أرض المعركة من مواقف وأحداث، ومن ذلك ما عبّر عنه كعب ابن مالك ﷺ في موقعة بدر، عندما وصف قتلى المشركين الذين سقطوا في أرض المعركة، فقال:

وَعُتْبَةُ وَابْنُهُ خَرَا جَمِيعًا وَشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ

وَهَامَ بَنِي رِبِيعَةَ سَأَلُوهَا فَفِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ (٤)

حيث أشار كعب ﷺ إلى مقتل سادة قريش، ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، اللذان قتلا في بدر، فقد لقياً جزاء عداوتهما ومحاربتهما للمسلمين، وفي التعبير عن مصرع شيبه تصوير بديع، وذلك حين قال: ((وشيبه عضّه السيف الصقيل)) فقد شبه السيف بجيئة تعضّ، وتنهش، وتلحق الضّرر بمن تريد، حيث أوحى هذا التعبير بالأثر الذي أحدثه السيف، وما كان له من وقع مؤلم في أجساد المشركين. وفي قوله:

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

(٢) الجِلَاهُ: جمع جلهة، وجلهتا الوادي: جانباه. ومِلْأَوْسٍ أَوْ مِلْخَزْرَجِ: أي من الأوس ومن الخزرج على سبيل التسهيل.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٢٩٩.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٣.

((وهام بني ربيعة سائلوها)) إحالة للسؤال من العاقل إلى ما لا يعقل، إذ الخطاب يكون في حقيقته إلى أولئك المشركين، وليس إلى هاماتهم التي تطايرت في يوم بدر، وهنا يكون التعبير أبلغ وأقوى تأثيراً من جهة الاستدلال على ما حلَّ بالمشركين، وما أصابهم في تلك الموقعة الحاسمة.

ويصف العباس بن مرداس السلمي ما كان من مشاركة بني سليم في فتح مكة بألف فارس جاءوا لنصرة النبي ﷺ وتحقيق الفتح المنتظر، يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ مُسَوِّمٌ^(١)

لقد كان العدد الذي شارك المسلمين من بني سليم كثيراً في نظر الشعاع، فهم (معلمون) ومتدربون على الحرب وخوض غمارها من جهة، وقد سالت بهم تلك الأرض السهلة المتسعة لكثرتهم ووفرة أعدادهم من جهة أخرى، وهنا يبرز دور التصوير الذي لجأ إليه العباس بن مرداس في قوله: (ألف تسيل به البطاح) إذ لا تسيل الأرض ماءً، بل تسيل رجالاً من بني سليم ملأوا بكثرتهم تلك البطاح، وهو ما يُبرز أهمية تلك الحشود التي توافرت لنصرة المسلمين في فتح مكة.

وفي موقعة مؤتة، وأمام جيوش الروم الجرارة التي واجهت المسلمين في أرض المعركة، لم يجد عبد الله بن رواحة ﷺ بداً من مخاطبة نفسه، وحثها على الصبر والعزيمة، والتضحية من أجل النصر أو الشهادة في سبيل الله، يقول:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُفْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ

إِنْ تَسْلَمِي الْيَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِي أَوْ تُبْتَلِي فَطَالَمَا عُوْفِيَتْ^(٢)

فقد جعل الشاعر من نفسه إنساناً مقابلاً له يجيد لغة الحوار والخطاب، والجدال والإقناع، وذلك ليست ما في وجدانه من مشاعر، ويعالج ما في داخله من إحجام، قاصداً في نهاية المطاف أن تشجع نفسه، وتقدم على ذلك الأمر الذي جاء من أجله، وهو الجهاد والتضحية في سبيل الله.

ويصور العباس بن مرداس ﷺ بطولة قومه وشجاعتهم، وهم يتصدون للمشركين في موقعة حنين، فيقول:

(١) السيرة النبوية ٤٢٦/٢.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

إِذْ نَرَكِبُ الْمَوْتَ مُحْضَرًا بِطَائِنُهُ وَالْحَيْلُ يَنْجَابُ عَنْهَا سَاطِعٌ كَدِيرٌ^(١)

فالشاعر هنا وفي سياق تجسيد شجاعة قومه وفروسيّتهم يلجأ إلى التّصوير، وذلك حين أحال الأمور المعنويّة إلى أمور حسّيّة، تشاهد، وتُركب، ويُتعامل معها، وهو ما يظهر في قوله: (إذ نركب الموت محضراً بطائنه) فقد أحال (الموت) وهو أمر معنوي إلى محسوس، وجسّده بشكل ملموس، ليُوحى من خلال ذلك بما امتاز به أولئك الفرسان من ثبات، وعزيمة، وإقدام في أرض المعركة.



(١) السّيرة النبويّة ٢/٤٦٧.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أفصح العرب قاطبة سيّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:
فقد سارت هذه الدراسة في تتبّع شعراء غزوات النبي ﷺ، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدّفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتّصدّي لهم في كلّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدّعوة الإسلاميّة.

وقد اشتملت هذه الدراسة على فصلين أساسيين، أحدهما بعنوان: (الشّعري في مواكبة الغزوات)، وفيه عرض البحث لغزوات النبي ﷺ، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشّعري من ردود على شعراء المشركين، حيث كانت غزوة (بدر) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشّعراء، ثم تلتها غزوة (أحد)، وأتسم فيها الشّعري بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفتخرون على المسلمين، ولذا فقد جاءت الرّدود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشّعري، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة (الخنديق) وقف الشّعري يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنويّة في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنهم باءوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة (مؤتة) وقف الشّعري يستنهض الهمم، ويقوّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من النّصر أو الشّهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء (فتح مكة) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء، حيث مجّد الشّعراء ذلك الفتح وأبانوا عن عظّمته، وأهمّيّته للمسلمين.

أمّا الفصل الثّاني فكان بعنوان: (القيم الفنيّة في شعر الغزوات) وفيه تناولت الدراسة ما أتسم به ذلك الشّعري من قيم فنيّة في جانب اللّغة الشّعريّة، والصّورة الفنيّة، وبيان أثر

القرآن الكريم في شعر الغزوات.

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأستمدُّ منه العون والتأييد.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.



فهرس المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.
- ٣- الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين: د. نايف معروف، دار التفانس للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤- الأدب في عصر النبوة والراشدين: د. صلاح الدين الهادي، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ.
- ٥- أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرحيم محمود.
- ٦- الاستيعاب في أسماء الأصحاب: لابن عبد البر القرطبي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٨٢هـ.
- ٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين ابن الأثير، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٨- الإسلام والشعر: د. فايز ترحيني، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ٩- الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر لابن حجر العسقلاني، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، تحقيق: علي محمد الجاوي.
- ١٠- الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني، دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
- ١١- التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة، د. عبد الرحيم محمود زلط، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٢- تاريخ الأدب العربي: د. عمر فزوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.
- ١٣- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي -: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة ١٩٨٤م.
- ١٤- تأملات في سيرة الرسول ﷺ: د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٥- جماليات القصيدة المعاصرة: د. طه وادي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.
- ١٦- دراسات في أدب الدعوة الإسلامية: د. محمود حسن زيني، مطبوعات مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٢هـ.
- ١٧- ديوان حسان بن ثابت، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م، تحقيق: د. سيد حنفي حسنين.
- ١٨- ديوان عبد الله بن رواحة - ودراسة في سيرته وشعره -: د. وليد قصاب، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.
- ١٩- ديوان كعب بن مالك الأنصاري - دراسة وتحقيق -: د. سامي مكّي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.
- ٢٠- ديوان النابغة الجعدي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ، تحقيق: عبد

- العزیز ریاح.
- ٢١- سير أعلام النبلاء: لشمس الدين الذهبي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠١هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون.
- ٢٢- السّيرة النّبويّة: لابن هشام، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطّبعة الثّانية ١٣٧٥هـ، تحقيق: مصطفى السّقا وزميليه.
- ٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٤- الشّعْر الإسلامي في صدر الإسلام: د. عبد الله الحامد، الطّبعة الثّانية ١٤٠١هـ.
- ٢٥- شعر عبد الله بن الرّبعري: د. يحيى الجبوري، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
- ٢٦- شعر العقيدة الإسلاميّة في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٢٣هـجرية: د. أيهم القيسي، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٧- شعر الفتوح الإسلاميّة في صدر الإسلام: د. الثّعمان القاضي، الدّار القوميّة للطباعة والنّشر، القاهرة ١٣٨٥هـ.
- ٢٨- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: د. يحيى الجبوري، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.
- ٢٩- صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطّبعة الأولى ١٣٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٣٠- الصّورة والبناء الشّعري: د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.
- ٣١- العمدة في محاسن الشّعْر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠٨هـ، تحقيق: د. محمد قرقران.
- ٣٢- في أدب الإسلام - عصر النّبوة والرّاشدين وبنو أمية -: د. محمّد عثمان علي، دار الأوزاعي للطباعة والنّشر، بيروت، الطّبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٣٣- القاموس المحيط، لمجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر، بيروت، الطّبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
- ٣٤- لسان العرب: لابن منظور المصري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٣٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدّين ابن الأثير، دار نضضة مصر للطباعة والنّشر ١٩٧٣م، تعليق: د. أحمد الحوفي وزميله.
- ٣٦- مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم الميداني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٨م، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم.
- ٣٧- المسند: للإمام أحمد بن حنبل، دار المعارف، القاهرة ١٣٧٤هـ، شرح: أحمد محمود شاكر.
- ٣٨- المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧م.

- ٣٩- معجم ألفاظ القرآن الكريم: عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطابع الأوفست ١٤٠٩ هـ.
٤٠- معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٣٧٤ هـ.
٤١- المعجم الوسيط، عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م.
٤٢- التابغة الجعدي - حياته وشعره -: د. خليل إبراهيم أبو ذياب، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
٤٣- النظرة النبوية في نقد الشعر: وليد قصاب، منشورات المكتبة الحديثة، العين ١٤٠٨ هـ.
٤٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله.



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١٥	المقدمة
١٧	الفصل الأول: الشعر في مواكبة الغزوات
١٨	غزوة بدر
٢١	غزوة أحد
٢٧	غزوة الخندق
٣٣	غزوة مؤتة
٣٦	فتح مكة
٤٢	الفصل الثاني: القيم الفنيّة في شعر الغزوات
٤٢	أولاً: أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر
٤٦	ثانياً: اللغة الشعريّة
٥٠	ثالثاً: الصُورة الفنيّة
٥٥	الخاتمة
٥٧	فهرس المصادر والمراجع
٦٠	فهرس الموضوعات

